الأثر السوسيو - ثقافي لتكنولوجيات الإتصال الحديثة في الجزائر *

بقلم الأستاذ / سعيد بومعيزة
مدير معهد علوم الإعلام والإتصال
جامعة الجزائر.

سنحاول في هذه المداخلة أن نثير إشكالية تحتاج إلى مناقشات في مثل هذه المناسبات، أو تكون مواضيع بحوث للأساتذة والطلبة. وهذا بدافع هاجس الإبتعاد عن عرض أفكار وتأكيدات لا تستند بعد إلى أية براهين وإثباتات علمية. ولكن هذا لا يتعارض مع عرض بعض النتائج التي توصلت إليها البحوث في الجزائر، والتي يمكن أن تشكل في حد ذاتها فرضيات بحث في المستقبل من أجل فهم الظاهرة فهما ملائما.

في الوقت الحاضر، نعني بعبارة تكنولوجيات الإتصال الحديثة «سواتل» ** الاتصالات، سواء منها «سواتل» الخدمة الثابتة أو سواتل البث المباشر، وهذه

---

* ورقة ألقيت أمام المشاركين في اليومين الدراسيين حول أدوار الإتصال في المجتمع الذين نظمهما معهد علوم الإتصال، جامعة باجي مختار (عنابة) بتاريخ 23 و 24 نوفمبر 1996.

** الأقمار الصناعية الخاصة بالإتصالات.

التكنولوجيا تزاوجت مع تكنولوجيا الحواسب الالكترونية وأجهزة التلفزيون والهواتف والألياف البصرية والرقائق الجزئية لتعطي ما يسمى بتكنولوجيا المعلومات.

من جهة أخرى، ولتوضيح مدلول عنوان مداخلتنا، فإننا نستعمل كلمة الأثر عمدا لتجنب إستعمال مصطلح التأثيرات الذي يفيد معاني ودلالات أخرى ويطرح مصاعب منهجية عدة. إذا وفي سياق حديثنا نعني بالأثر ذلك الفعل الناتج عن تلاقي أنظمة ثقافية متباينة، وما يتركه هذا التلاقي من عواقب وردود أفعال تتوقف في مجملها على مدى قوة وفعالية كل نظام ثقافي.

ولكي تتجلى لنا معالم الأثر السوسيو - ثقافي لتكنولوجيات الإتصال الحديثة في الجزائر تجدر الإشارة إلى أبعاد السياقات المختلفة سواء تلك التي ظهرت فيها تكنولوجيات الإتصال الحديثة أو تلك التي تتلقاها، وهي في حد ذاتها تشكل إشكالية جديرة بالإهتمام والدراسة.

في هذا الصدد أشار، ومنذ أمد بعيد، الباحثون (1) إلى أن تكنولوجيات الإتصال هي إنعكاس للبنيات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية الموجودة في مجتمع ما. كما أن هناك علاقة جدلية بين هذه البنيات والأنظمة التكنولوجية.

من هذا المنظور، فإن المجتمع وأثناء قيامه بالنشاطات الإجتماعية المختلفة يخلق الطلب إلى المعلومات والإعلام والترفيه، ويوفر الموارد المالية الضرورية لتطوير الصناعة الإتصالية والمعلوماتية. ويهيء المناخ الإجتماعي والثقافي الذي تعمل فيه. كما تقوم الأنظمة التكنولوجية بإشباع هذا الطلب.

ومن جهة أخرى، تحفز تكنولوجيات الإتصال والمعلومات التغير، وتعجل الطلب إلى خدماتها الخاصة، وتساهم في مناخ الحرية السياسية والإقتصادية والثقافية، الذي يمكنها من العمل بصفة أحسن، وكذلك نشر الأفكار والمستحدثات. (2)

وما يجدر التوكيد عليه هو أن ما يميز تكنولوجيات الإتصال والمعلومات عن باقي أنواع التكنولوجيات يتمثل في أن الأهداف وراء إنفاق الأموال وتجنيد الكفاءات لم تكن أهدافا إجتماعية أو ثقافية. (3) وإنما الأهداف الحقيقية فرضها المنطق العسكري جراء الحرب الباردة فيما يتعلق بالسواتل ومنطق مخاطر الحرب النووية بخصوص تكنولوجيات المعلوماتية. إلا أن التكنولوجيا وكما سبقت الإشارة تخلق الطلب إلى خدماتها في مجالات متنوعة ومتعددة.

هكذا، إذن، فإن تكنولوجيات الإتصال والمعلومات تعتبر عاملا مساعدا ووليدة، في ذات الوقت، التغيرات البنيوية في إقتصاديات البلدان الرأسمالية المتقدمة منذ الستينات (الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان) المتميزة بانتقال النشاط الإقتصادي من القطاع الصناعي التقليدي إلى إنتاج المعلومات والخدمات التي أصبحت تشكل ما يفوق 60٪ من الدخل القومي الإجمالي. إذ بلغت، على سبيل المثال، جملة مبيعات الإعلان والترفيه والسينما خمسة ملايير دولار في الولايات المتحدة في 1995 . (4)

في هذا السياق، وبعد التأكد من زوال خطر الحرب النووية، ظهرت مبادرة تحرير القيود التنظيمية الخاصة بصناعة الإتصال والمعلومات والبث الإذاعي. وتدخل هذه السياسة ضمن جهود الشركات عبر الوطنية المدعمة من طرف الدولة في بعض الحالات، مثل فرنسا واليابان، من أجل تطوير سوق ما يسمى بالسلع المعلوماتية والخدمات، هذا بعد أن بلغ سوق السلع البيضاء بما فيها أجهزة التلفزيون درجة التشبع. وعليه، أصبحت التجهيزات الإلكترونية تبحث عن منتوجات وأسواق جديدة، وركزت الجهود في إتجاه تحويل جهاز التلفزيون مع ربطه بالحاسوب والهاتف إلى «وحدة عرض بصرية» (Unité de spectacle visuel) متعددة الأغراض.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار، إلى أن إدخال تكنولوجيات المعلومات في المجال الثقافي، حتى ولو كان الغرض منه تسويق المعدات وما تستلزمه من برمجيات، فإنه كان يرمي أيضا إلى تجاوز رقابة عرض المنتوجات الثقافية التي تفرضها المؤسسات العمومية، وذلك تحت شعار الحرية الثقافية وتنوعها ووفرتها، بالإضافة إلى حجة إنتقال السيادة من المنتج إلى المستهلك. (5)

في سياق هذه التغيرات المتعددة الأبعاد والتضمينات ظهر البث التلفزيوني المباشر مع منتصف الثمانينات ليعبر الحدود الجغرافية فيما بين الدول بالصورة والصوت وغير معترف بالتشريعات السائدة، وبالتالي أصبحت مفاهيم السيادة الوطنية والهوية الثقافية تكتسي معاني أخرى بالنسبة للبلدان المستقبلة.

وفي إعتقادنا، إن البث التلفزيوني يشكل بادرة من البوادر الأولى في إتجاه إرساء دعائم النظام الدولي الجديد، والذي تصادف ظهوره مع بداية إنهيار المعسكر الشيوعي وتراجع أهمية بلدان العالم الثالث سياسيا. كما ستتقوى دعائم النظام الدولي الجديد بظهور الإنترنات (Internet) نظرا لما تنطوي عليه من إمكانات تكنولوجية هائلة لربط سكان القرية الكونية. (6)

وإذا كان الحديث الذي سبق له صلة بالسياق الخارجي، فماذا عن السياق الداخلي؟ إن أهم ما يميز السياق الداخلي الجزائري هو أن ظهور البث التلفزيوني المباشر تصادف مع سياسة الإنفتاح وبداية الأزمة الإقتصادية التي تولد عنها بطالة متزايدة وإنخفاض في مستوى المعيشة ومشاكل سياسية أخرى.

ورغم الإنفتاح السياسي في الجزائر منذ دستور 1989، إلا أن الحريات الأساسية للأفراد وعلى الخصوص حرية التعبير والصحافة لم ترق بعد إلى المستوى المنشود. وما يزيد في تفاقم الأزمة غياب مشروع مجتمع وعدم وجود إجماع وطني على الحد الأدنى من القضايا الأساسية للأمة.

يضاف إلى ما سبق، فإن التعددية الإعلامية في الجزائر مازالت في مستوى التعددية الصورية ولم تنتقل بعد إلى مستوى التعددية الفعلية التي تعكس

حقا مجمل التيارات الفكرية والسياسية التي تميز المجتمع الجزائري. سيما أن قطاع الإعلام الإلكتروني مازال يعيش في ظل الإحتكار من طرف السلطة ويعاني من نقص في الموارد المالية والبشرية القادرة على الإبداع والإنتاج الشيء الذي يجعل هذا القطاع غير قادر على تلبية رغبات واحتياجات الجمهور، وبالتالي قد يدفعه الأمر إلى البحث عن بدائل أخرى.

وتمثلت هذه البدائل بالنسبة للجمهور الجزائري، بدء من منتصف الثمانينات في قنوات البث التلفزيوني المباشر التي أصبحت في متناول معظم أفراد المجتمع الذي تتوفر لديهم الإمكانيات. وإذا كنا لا نعرف في الوقت الحالي، بصفة دقيقة، عدد مشاهدي قنوات البث التلفزيوني المباشر، ولا أعداد الهوائيات الصحنية سواء الفردية أو المشتركة، إلا أن الشيء الواضح هو إنتشار هذه الأخيرة بكثرة سيما في المراكز الحضرية وعلى هذا فإن عدد المشاهدين لا بد وأن يكون معتبرا.

ومنذ ظهور البث التلفزيوني المباشر في الجزائر أصبحت برامجه، بصفة عامة، وبرامج التلفزيون الجزائري بصفة خاصة محل إنشغال إجتماعي وثقافي وأكاديمي، بلغ درجة الجدل في بعض الأحيان. ويتمحور النقاش أساسا حول التأثيرات المحتملة لبرامج هذه الوسيلة الإعلامية.

إننا فضلنا الحديث عن الأثر وليس التأثيرات نظرا لما يطرحه هذا المصطلح من صعوبات أمام الباحثين، إذ أن كل دراسات التأثير تتحدث عن وجوده ولكنها لم تقدم إلى حد الآن - حسب علمنا - أدلة قطعية ومقنعة للبرهنة عن وجوده. وإذا كان التأثير يشير أساسا إلى العواقب المباشرة التي تترتب جراء التعرض إلى رسائل ورموز إعلامية معينة، وتتمثل هذه العواقب في تغير يحدث عند الفرد على مستوى التفكير والسلوك والقيم والمواقف والأذواق، لم يكن ليحدث لولا ذلك التعرض إلى مثل تلك الرسائل والرموز الإعلامية.

وبالتالي إذا أردنا أن نعرف تأثيرات برامج معينة على مشاهديها يتعين بالضرورة دراسة محتويات هذه البرامج مسبقا ثم معرفة خصائص الجمهور المبحوث مسبقا أيضا، وبعدئذ دراسة التغيرات التي تحدث في الجمهور المدروس بسبب تعرضه إلى هذه المحتويات، وهذا ليس على المدى القصير وإنما على المدى البعيد.

إننا فضلنا أيضا الحديث عن الأثر وليس التأثيرات بسبب أن دراسات التأثيرات تعتبر مضامين وسائل الإعلام كمنبه له تأثيرات محددة على جمهور سلبي وجامد. وهذا عكس ما تشير إليه النظرية الاتصالية الحديثة التي تؤكد على أن الجمهور يتعرض إلى الرسائل والرموز الإعلامية وهو مجهز بمكانزمات دفاع نفسية وإجتماعية وحضارية تتحكم إلى حد بعيد في إختياره للتعرض إلى محتوى معين دون آخر، وكذلك انتقائه للمعلومات وإدراكها يتم حسبما يعزز أو يتوافق مع قيمه ومعتقداته.

وفي الواقع وبخصوص مشاهدة برامج التلفزيون بصفة عامة فإن هذه المشاهدة هي عملية إجتماعية ونشيطة. لأنها تتم في المنزل وفي أوقات المشاهدة القصوى، ثم أن أعضاء الأسرة الواحدة أو الأصدقاء أو الأقارب يتناقشون، خلال المشاهدة أو بعدها، محتويات برنامج المشاهد فيما بينهم، وبالتالي قد يصلون إلى فهم مشترك. وتتحكم في هذا الفهم المشترك أدوات تأويلية منها ما هو خاص بنفسية وشخصية المشاهد ومنها ما هو متعلق بسياق الثقافة المحلية والتجربة الذاتية التي على أساسها يقوم المشاهد بالإدراك الإنتقائي والتأويل والتقييم للبرنامج ومن ثمة يدرج وبصفة إنتقائية ما يشاهده أو يسمعه في عقله وحياته.

من هذا المنطق فضلنا إستعمال مصطلح الأثر لنشير أيضا إلى العلاقة التفاعلية بين برامج البث التلفزيوني المباشر للمشاهد الجزائري. وأيضا ركزنا على تكنولوجيات الاتصال من خلال البث التلفزيوني المباشر. واستثنينا من حديثنا «شبكة الشبكات» (Internet) التي بدأت بعض الدراسات (7) تشير

إلى أثرها على المجتمعات الغربية، والتي ستحدث في المستقبل غير البعيد تغييرا جذريا على بعض المفاهيم التي ألفناها منذ مدة كالسيادة، والثقافة، والترفيه،. والخدمات، والعمل، والمكتب، والحدود، والأقاليم والاتصال، والمراسلة، والصداقة وعرف الزواج... الخ، فكل هذه الأمور في «الانترنيت» ستصبح أموراً إفتراضية (Virtuel) أي سيصبح بإمكان الفرد أن يعيشها إنطلاقا من بيته ومن خلال شاشة الكومبيوتر وهو ماسكا الفأرة (La souris) بيده ليبحر في عالم الكرة الأرضية وينطلق من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها في ثوان قلائل.

إننا استثنينا «الانترنيت» من حديثنا لأنها ما زالت لم تحط رحالها بشكل بارز في الجزائر، وبالتالي فأثرها معدوم في الوقت الحالي، لأن أيضا المخترعات التكنولوجية لا تكتسب الطابع الإجتماعي إلا عندما يدركها الأفراد ويجربونها ويختبرون منفعتها ويتبنونها وبعدئذ تصبح جزء من الممارسة الاعتيادية. وهذه الملاحظة لا تنطبق على «الأنترنيت» مثلما تنطبق على تكنولوجيات البث التلفزيوني المباشر التي أصبحت جزء من الممارسة الاعتيادية في الجزائر.

نعود إلى الحديث عن أثر البث التلفزيوني المباشر على المشاهد الجزائري والذي يمكن أن نستشفه من خلال إحدى الدراسات الجدية التي قام بها معهد الدراسات الإستراتيجية الشاملة بالجزائر في 1992 - 1993، والتي شملت عينة 1474 فردا وممثلة لـ 18 ولاية من بين 48 ولاية. (8)

ونستخلص من هذه الدراسة على المستوى الإجتماعي ما يلي:

1 - أن البث التلفزيوني المباشر كوسيلة وكمحتوى أصبح يشكل شكلا من أشكال التفاعل الإجتماعي.

2 - أن التعرض إلى البرامج يمس جميع الفئات الإجتماعية إلا أن الفئات الدنيا تبقى أقل حظا.

3 - أن البث التلفزيوني المباشر أصبح يشكل مؤسسة تنشئة إجتماعية مثله مثل المؤسسات المحلية.

4 - أن البث التلفزيوني المباشر كمحتوى يساعد على فهم الأدوار الإجتماعية وحل المشاكل المختلفة سواء على مستوى الحياة الفردية أو المهنية أو الإجتماعية.

5 - أن البث التلفزيوني المباشر كمحتوى يساعد على خلق هوة معرفية فيما بين الفئات الإجتماعية. وتلعب اللغة دورا في هذا المجال.

أما على المستوى الثقافي فيمكن إستخلاص ما يلي:

1 - أن محتوى البث التلفزيوني المباشر يمثل مصدرا من مصادر الثقافة.

2 - أن محتوى البث التلفزيوني المباشر يمثل وسيلة ترفيه أساسية.

3 - أن محتوى البث التلفزيوني المباشر يمثل مصدراً للمعلومات.

4 - أن محتوى البث التلفزيوني المباشر يساعد على التأكد من المعلومات.

5 - أن نسبة عالية من المشاهدين الجزائريين يعتبرون أخبار القنوات الفرنسية متحيزة بخصوص تغطياتها لأحداث الجزائر.

6 - أن نسبة معتبرة من المشاهدين الجزائريين يتابعون الحصص السياسية في قنوات البث التلفزيوني المباشر.

وكخلاصة، إننا تعتبر هذه الإستنتاجات مجرد مؤشرات تحتاج إلى أبحاث أخرى للتأكد من صحتها والتعمق في فهم طبيعتها. سيما وأن الفضاء الجزائري لم يعد مقصورا على قنوات البث التلفزيوني المباشر الفرنسي وحدها، وإنما هناك قنوات أخرى، وبالتالي تظهر الحاجة ملحة إلى النظر في أثرها.

ومن جهة أخرى، فإن أحسن وأنجع وسيلة للتعامل مع البث التلفزيوني المباشر تكمن في النهوض بمكونات الثقافة الوطنية وإفساح المجال للإبداع والخلق في جميع المجالات الثقافية التي هي وحدها تستطيع إشباع الرغبات والاحتياجات الحقيقية للجمهور الجزائري.

الهوامش:

(1) - F.S. Siebert et al (1964): Four Theories of the Press. University of illinois press, chicago.

(2) - D. Mcquail (1983): Mass Communication Theory: An Introduction, sage publication, London.

(3) - N. Garnham (1983): Public Service vs Market, SCREEN. Vol. 24 n. 1 JAN; FEB London.

(4) - الثقافة العالمية العدد 76 السنة 1996 ص ص 84 - 85 .

(5) - E.S. Herman and N. Chomsky (1988): Manufacturing Consent. Pantehon N. Y.

(6) - الثقافة العالمية المرجع السابق ص، 112

(7) - نفس المرجع.

(8) S. Bardou et al (1995): Les NTIC dans les politiques régionales d'aménagement. Sciences et Sociétés N 34, Fev.

- A. Daddi Hammou (1994) la navigation à travers le réseau internet cerist Alger.

(8) - Les enjeux de la TV satellitaire en Algérie Rapport non publié (1994) INESG Alger.